لَيْـــلَى

في إحدى قرى ضواحي بيروت.. أو ما يسمونها الضّيْعَة.. عند صديقي حسن في منزله، أقف ناظرًا من الشرفة وأشرب القهوة.. كسيئ عادتي.. ساعة الأصيل منتصف الخريف الراكد.. في هذا الجو المكتئب أراقب فتاة في مقتبل عمرها انجذبت إليها مذ رأيتها للوهلة الأولى عند نزولي الضيعة، راقتني بشرتها البرونزية، وعيناها البنيتان وشعرها الجاف، وأيضًا ملابسها الذكورية التحررية.

لك يومان وثلاث ليلات تراقبها.. ماذا دهاك؟ أتُعجب بفتاة وتتعقبها لمجرد بشرتها البرونزية وملابسها التحررية! منذ متى وتشغل البنات عقلك!

ظلت نفسي تعاتبني طيلة ليلتي، ولكني أراها منصفة.. «منصفة؟! هل أصبحت حقًّا ذلك الكائن الذي يتعالى بذاته أن يعجب بفتاة؟ لست أدري»! وبينما تنازعني نفسي، إذ بصوت حسن صاعد من الطابق السفلي: ألن تنام يا صديقي؟!

- كم الساعة؟
- الساعة 2؟
- (مغمغمًا).. سأنام.

ألقيت جسدي على السرير بعد أن طلبت من حسن إطفاء المصباح. في هذا الظلام أسندت ظهري إلى الحائط ناظرًا إلى الشرفة متذكرًا ما حدث طيلة الليالي الثلاث التي أقضيها في بيت حسن، ذلك البيت المكون من طابقين مرتفعين يعيش أبو حسن وأمه وأخته في الطابق السفلي، ويجلس حسن في الأعلى وحده، يجلس ويدرس وينام في هذا الطابق أو هذه الصومعة الجميلة ذات الشرفة الواسعة المطلة على منزل جيرانهم.

عشرون بيتًا –أو يزيدون– مرصوفون كامتداد لنهاية الضيعة، بعضهم يتخذ حديقة صغيرة محاطة بسور قصير، وكانت هذه حال بيت الفتاة برونزية البشرة. فمنزلهم الصغير المجاور لبيت حسن أمامه نبتات صغيرة تشبه نجيلة الملاعب وعلى يسار هذه النبتات زُرعت بضع وردات ملونة، وعلى يمينها شجرة يتيمة متساقطة الأوراق. وفي نهاية المنزل إلى اليسار تقع غرفتها بنافذتها الواسعة التي تقف عندها وتبدأ في الرسم. إنها رسامة.. ما أجملها!

«لقد أتعبتَ كتفيك وظهرك، اعتدل وارقد». أرسل عقلي إلى جسمي هذه الرسالة ليقطع بها عليَّ تفكيري، فاستلقيت راقدًا وأغمضت عيني عسى أن ينال النوم مني. متقلبًا على السرير لساعة أُمنّي نفسي بالنوم وعقلي يأبى. فقمت والتقطت سيجارة من علبة

حسن وأشعلتها.. «أين هذا الإحساس الرائع الذي يتحدث عنه مدمنو النيكوتين؟ أم لأني لم أعتَد التدخين»! على أي حال عدت إلى السرير ثانية: «لا بد أن أنام هذه الليلة».. فأغمضت عينيّ شاعرًا أني أنام.

صوت الدراجة البخارية قطع نومي.. هذا الصوت الذي طالما كرهته لِما يثيره من ضوضاء مزعجة.. فقمت منتفضًا ناحية الشرفة.. نعم إنها هي.. لقد أدركت الآن معنى أن «هناك أشياء نكرهها لكننا لا نستطيع تغييرها فتظل حتى نألفها ثم نحبها» إني أحببت هذا الصوت.

لكن أين تذهب الآن؟ إنها الخامسة، لم تشرق الشمس بعد!

عادت بعد 24 دقيقة، وما زلت واقفًا بالشرفة. «إن الجو بارد.. أغلِق النافذة أو ارتدِ شيئًا».. هذا ما خاطبني به عقلي، لكن نفسي تأبى الاستجابة. فقدميّ تصلبتا بالأرض وذراعيّ تحجرا وراء ظهري.. وصدري يتنفس الصقيع ولا يُبالي.

دخلتْ بيتها ثم أُضِيء نور غرفتها لكنها لم تظهر، ثم أتت بكرسي تحمله ووضعته أمام نافذتها ووضعت أمامه اللوحة. إنها متخففة من ثيابها، أستطيع أن أرى أطرافًا شتى من جسدها المسكِر. «اتق الله، غُضّ طرفك. تقتحم على الناس خصوصيتهم، وتنتهك حرمتهم». كنت أتوقع أن هذا ما ستزجرني به نفسي، لكنها لم تفعل.

عجبًا! هل حقًّا أشعر أني أملكها، وأنها ليست محرمة عليّ؟ هل أحببتها؟ أم ماذا؟ أين وازعي الديني والأخلاقي؟

ـ لقد ذهب مع الريح.

كانت هذه إجابة عقلي عليَّ التي لم أُرِد فهمها، فلدي ما يشغلني. وما تلك اللوحة التي ترسمها! حقًّا إن كل إبداع يشبه مُبدِعَه. وجه فتاة يتألق الحسن فيه، بقرطها الطويل وخاتمها الذهبي، واضعة أصابعها العشرة على خديها.

صوت نحنحة وأقدام تطأ سلم منزل حسن.. يا لِهذا السلم الذي يخرجني من أجمل عوالِمي! وينادي: استيقظ يا حسن.. إنها السابعة!

فانتفضت وهممت بإغلاق الشرفة، يا لِحظي التعيس لقد أصدرت صوتها الضوضائي، فالتفتت الفتاة إليَّ ورأتني. ما أجمل ابتسامتها اللطيفة! أدركت الآن بلاهة السعادة.

كل شيء كان يمشي بالتصوير البطيء عدا طرقات أخت حسن ونداءاتها. أقفلت الشرفة متجهًا إلى الباب؛ لأفتح لها وكأني أهوى من السماء فتخطفني الطير أو تهوي بِيَ الريح. «أخت حسن! اسمها سمر» وما الداعي إلى تذكر اسمها الآن!

ـ صباح الخير. (بادرتني هي بالتحية).

ـ صباح الخير.

ـ الفطور جاهز.. أبلغ حسن.

أومأت لها برأسي أن (نعم).

ـ ألم تنم هذه الليلة؟

تبدّى على وجهي الاستغراب.

ـ لا تبدو علامات النوم على وجهك.. لكن يبدو أن شيئًا قد أسعدك! ما هو؟

كنت أعتبر سمر كأختي فهي تصغرني أنا وحسن بثلاث سنوات أو أربع، أظنها في العشرين ذكية وخدومة. فأمسكت بيدها إلى الشرفة وأشرت إلى الفتاة، بعد أن فتحت جزءًا من الشرفة بحذر.. فضحكت.

ـ شششش.. اسكتي. (قلتها واضعًا سبابتي على فمي).

ـ إذًا هذا هو السبب؟

ـ من هذه، لم أرها من قبل؟ (متعجلًا)

ـ اسمها ليلى و...

ـ ليلى.. (رافعًا صوتي في أَلِفِها)

ـ اصبر (لقد أحرجتني).. هي ليست من أهل الضيعة، أبوها طبيب.. ويأتون إلى هنا ليغيروا الجو، وهي في معهد الفنون الجميلة.

ـ طبعًا.. لكن 3 أيام في لوحة واحدة؟

ـ وقد تكون 3 شهور، لكنها أَوَّل مرة تُكَلِّمُنِي عن صبية!

ـ صبية؟!

يا إلهي! ماذا أفعل؟ ما بُحت بمشاعري لأحد من قبل، فكيف أحدّث (سمر) بل وأسائلها عن فتاة؟

احمرّ وجهي من سؤالها، فأدركتْ هذا وقالت:

ـ لا تقلق لن أخبر أحدًا.. المهم أن ليلى هذه طيبة جدًّا، لكنها مجنونة بعض الشيء، تلبس مثل الأولاد ولديها دراجة نارية (قالتها رافعة حاجبيها لتفاجئني)، لكنها تعيش فقط من أجل نفسها.

لامس وصفها شغاف روحي. سأغرق الآن في بحر تأملي.

ـ يا صديقي.

«يا لتعاسة صديقك»! قلتها في نفسي ضاربًا الأرض بيُسراي في حركة لا إرادية.. لكني أفقت سريعًا: صباح الخير يا حسن.

ـ الفطور.. الفطور.

صاحت بها سمر، فهبّ حسن من سريره وجذبني لننزل إلى الأسفل. جسمي يتحرك مع حسن لكن عيني تعلقتا بالشرفة، تفتشان عن ليلى التي اختفت عندما التفتُّ إلى صوت حسن.. كدت أنزلق من أعلى السلم.

ـ ركّز يا صديقي.

جلسنا إلى السفرة المشتملة على لبن وبيض، وأنا لا أحب هذا ولا ذاك، فتناولت فنجان قهوتي وبدأت أشرب.

ـ يا بُني هذه القهوة مضرّة.

سمعت أذني هذه النصيحة من أم حسن، لكن عقلي لم يدرك أني المخاطَب، أو حتى يدرك معنى الجملة.

ـ بمَ يشرد صديقك؟

قالتها أم حسن ليرد هو عليها: وما أدراني.

فقالت سمر: دعوه، إنها عادته.

أنظر في فنجان القهوة وكأني بليلى تتمايل بقميصها السماوي، وشعرها العاري المنثور على كتفيها، ووشم معصم يسراها.

لكن لِمَ هذه الـ «ليلى»! ولماذا الآن؟ ولماذا في بيروت؟ أَلْفُ لماذا كانت تنهش عقلي.

ـ هِااي.. أين ذهبت؟

قالها حسن بعدما أنهوا فطورهم فأخجلني بها.. قعدوا وقاموا ولم أنتبه لهم. ثم أعقب: أنا ذاهب إلى السوق لأشتري بعض الأشياء.

ـ سآتي معك. (وانتصبت واقفًا).

ـ اجلس هذا بيتك، حسن سيأتي سريعًا.

أمرتني بها أم حسن، فابتسمت وأومأت بالموافقة.

ـ إن أردت فاصعد لأعلى.

قالتها سمر التي بدأت تخجلني أمام نفسي.. فصعدت.

جلست على كرسي حسن الكبير، أفكر في حالي وما أفعل. بعد أن أَسَرَّ ذهني إليَّ سؤالًا واحدًا، لِمَ هذه؟ ورأيت جسمي يمشي صوب الشرفة ويقف ناظرًا، وكأن الإجابة تكمن هناك.. في غرفة ليلى.

لا تزال ترسم.. لكنها الآن واقفة، ممسكة الفرشاة بيمناها والسيجارة في يسراها. إنها مدخنة!

أُدرك أنها أحست بمراقبتي لها، لكنها لم تفعل شيئًا؛ لم تغضب ولم تسعد، بل تركتني غارقًا في بحر تساؤلاتي. لاحظتُ أنها انتهت من لوحتها فألقتْ عقب سيجارتها، ثم ارتشفت شربة ماء وأخذت تتحرك يمنة ويسرة ناظرة إلى اللوحة من كل الجهات. ثم أسدلت ستار شرفتها واختفت وتركتني واقفًا.

ـ اللعنة على هذا الستار. لستُ في مسرحية شكسبيرية حتى تسدله وتذهب.

كادت ضروسي تُطحن لشدة عضي نواجذي، وكاد رسغ يُمناي يتفكك لضرباتي المتواليات على الحائط. ثم شعرت بالألم يعتصر ساقي اليسرى وتذكرت أني لم آتِ بأقراص الدواء معي، فانحنيت لأدلّكها. ثم رفعت رأسي فوجدتها تنظر إليَّ. نعم هي، لا أحد غيرها.. ليلى.

واقفة في حديقة منزلهم الصغيرة بجوار تلك الوردات. لوّحت لي بأصابع يدها الملساء الحانية مع ابتسامة جمعتْ شتات عقلي، فهممتُ برفع يدي لكن أشعة الشمس أجبرتني على إغماض عيني

لثوانٍ ثم فتحتهما فأبصرتها كما هي، لم تنل الشمس من عينيها، وأنّى لأشعة الشمس أن تقسو على تينك العينين!

ثم ولّتني ظهرها ناظرة إلى شجرتهم اليتيمة. فرجع جسمي خطوتين إلى الوراء والتف متجهًا إلى السلم.

ـ توقف، أقول لك توقف. أتريد أن تهرول إليها؟ كيف تفعل هذا؟

ضجر بها عقلي آمرًا بها جسدي الذي لم يأتمر. فنزلت السلم مسرعًا تتخبط قدمي بأختها حتى أتيت على آخره. فركلت طبق اللبن الموضوع أمام قطة حسن ففزعت هاربة. «حمدًا للَّه أن أم حسن لم ترني».

حتى لو رأتني ما كنت أنتبه لها، خرجتُ من الباب عدوًا إلى بيت ليلى وصدري يعلو ويهبط كأني كنت أجري لساعات وليس لدقائق معدودات.

وقفت أمام باب حديقتهم الخشبي الهرِم، فأحستْ بوجودي والتفتت إليَّ مبتسمة:

ـ Salut..!

ـ Salut mademoiselle..

عجبًا! تحييني بالفرنسية وأرد عليها أيضًا بالفرنسية. أين تشدّقي بالألفاظ العربية الفصيحة! بل وأين زعامتي التي أفرضها على أصدقائي في كل مجالسنا.. كيف تبادرني هي بالتحية!

لكن قبل أن تبدأ نفسي في عتابي قاطعها صوت ليلى:

ـ كيف حالك؟

ومدّت يدها مصافحة إياي، فالتقطها بيمناي وكأنها تنقذني غارقًا من بحر لجيّ. وأشرق وجهي لسؤالها، وعلتني هالة من الفرحة جعلتني أندفع:

ـ بخير، وأنتِ؟

ـ Moi, aussi.

ـ تتحدثين الكثير بالفرنسية، ألا تجيدين العربية؟

«ألا، وتجيدين! أهكذا تتحدث معها؟ وما هذا السؤال أصلًا»؟

عادت نفسي توبخني، لكنها الآن متقبلة الأمر بل وأحبّته! يبدو أن صوت ليلى العذب قد سحرها.

غرقت في بحر عينيها، لا أدري ماذا أقول؟ أخشى أن تقترب مني أكثر فتسمع دقات قلبي الذي يكاد يحلق من فرط سعادته، حتى انتشلتني من هذا البحر –بل وجعلتني أتألم– بسحب يدها من يدي. ثم أعقبتْ:

ـ بلى أجيد العربية. بل أستطيع أن أحدثك بالفصحى.

فابتسمت صامتًا، فأطردتْ:

ـ هل أعجبتك ليلى؟

ـ ليلى!

ـ نعم. تلك التي تراقبها من ثلاث ليالٍ.

فازدادت سرعة نبضي وابتلعت ريقي، آخذًا شهيقًا عميقًا. فقد ظننتها تقصد نفسها، قبل أن تهدئني بتوضيحها:

ـ أقصد اللوحة. اسمها «ليلى» كاسمي.

ـ لم أرَ واحدة لـ «فان جوخ» أو لـ «دافنشي» تسامتها جمالًا.

قلتها بنبرة العاشق الأبله. فردت بابتسامة ساخرة:

ـ وماذا عن بيكاسّو؟

ـ «ليلى» تفضل جميع أعمال بيكاسو.

فارتفعت ضحكاتها الجميلة الرقراقة وأخذ جسمها الرشيق يتمايل وشعرها الحريري مع النسيم.. ثم توقفتْ:

ـ تعرف أعلام الرسامين!

ـ أعرف أيضًا تشكيليين عرب.

ـ تشكيليين! (مندهشة من قولتي) مثل من؟

ـ مثل عالية الفارسي.

ـ عالية الفارسي.. عمان! ومن أيضًا؟

ـ أحمد السوداني.. وبغداد واحد.

ـ العرااق.

ـ وأعرف أيضًا المصري محمود سعيد و«دراويشه» الشهيرة.

ـ الدراويش! 2.43.. كريستيز.. جيد أنك تعرف كل هؤلاء. ومن تفضل منهم؟

ـ صراحةً السكندري ـ محمود سعيد ـ لا سيما مع الدراويش والشادوف.

ـ إنه التعصب يا صديقي.. مصريٌّ لمصري.

وضحكت ضحكتها الخفيفة فجاريتها ضاحكًا. ثم هويت من سماء «ليلى» إلى أرض شرودي واسترجاعي لما قلت.

«عالية.. بغداد واحد.. الدراويش..»! ما حملني على قول هذا؟ وما حملني على هذا الإطناب؟ وأنا الصامت دومًا، الشارد كمدًا، اللا موجود أبدًا.

ـ تعالَ.. تفضل واجلس.

نادتني بها فانطلقت بسرعة الضوء من أرضي الصماء إلى سمائها الغناء. فتحتُ الباب ووطأت أرض حديقتهم ثم توقفت.

ـ ما هذا الوشم؟ (ملوّحًا بمعصم يسراي).

فاقتربت مني ورفعت يُسراها بعرض جسدها. فقرأتُ:

ـ "C'est ma vie".

ـ هذي حياتي.

ثم لا أدرك كيف حولت وجهة بصري عنها، وهي التي تمنيت لو ألقي التحية عليها فقط، حتى لو لم تردها، ونظرتُ إلى ظهر زجاجة موضوعة على غصن تلك الشجرة المتساقطة وأحدقتُ بها:

ـ أفسنتين.. La fée verte.

ـ الجنيّة الخضراء!

وارتفع حاجباها وجحظت عيناها، واردفت بدهشة غريبة:

ـ من أين لك هذا؟

ـ (متهكمًا).. من سويسرا وإسبانيا.

فطفح على دهشتها سكونها قبل أن أزيله سائلًا:

ـ بل أنتِ من أين لكِ هذا؟

ـ من الفن.. من إدجار ديـ..

ـ ديجاس.. إدجار ديجاس L'Absinth 1876، اللعنة على هذا الفن.

فتعجبت من شدة غضبي. فحاولت الهدوء وأعقبت:

ـ وما الذي ساقكِ إلى هذا؟ لا تزالين في بداية العشرينات، في مقتبل الحياة.

ـ رأسي.

ـ رأسك؟!

ـ نعم. رأسي هي التي حملتني إلى ذلك.

ـ حملتكِ إلى نفق متهالك. ألا تعلمين كم نسبة «الثوجون» في تلك الـ..؟

ـ أعلم. (مقاطعة إياي) لكن كيف لك أنت أن تعلم؟ هل كنت..؟

ـ كنت مهتمًّا بها فقط.

ـ (متهكمة).. مهتم لدرجة «الثوجون» و«ديجاس»!

ـ و«تولوز لوتريك» أيضًا.

ـ (مندهشة).. لوترييك!

بابتسامة خفيفة؛ نعم..

«يا صديقي» صوت حسن –الذي اعتدتّ على مقاطعته لي– آتٍ من قِبل منزلهم. حتى وصل وربّت على كتفي ناظرًا إلى ليلى:

ـ Bonjour.

ـ Bonjour monsieur..

ـ اتفقت مع الجريدة على الساعة التاسعة لتقابلهم.

فسألت ليلى: جريدة؟

ـ Oui .. سيعطيهم مقالاته كي ينشروها.

ـ مقالاته؟

ـ أووووه.. ألم تعرفها بنفسك؟ هذا يا آنستي.

فقاطعته: هيا بنا يا حسن لنرى ماذا سنفعل.

وأشرت بيدي نحو المنزل أَنْ تَقَدّم. فاستدار وتحرك تجاهه، فأخرجت مفكرتي الصغيرة وقطعت منها ورقة وسجلت فيها عنوان حسابي على «فيسبوك» و«تويتر» وأرفقته:

«ليست حياتكِ وحدكِ..

C’est notre vie

إلى ليلى 24ـ10»

ثم طويت الورقة وأعطيتها ليلى، مودّعًا:

ـ أريد أن أسعد برؤيتك ثانية. وداعًا.

وأسرعت لألحق بحسن. «وداعًا.. وأسعد! ما هذه البلادة التي أصابتك فجأة؟ كان لا بد أن تقترب منها وتودعها يدًا بيد. أووه، لقد نسيتَ وضع رقم هاتفك بالورقة. يا لغبائك! ليتك تركت حسن ليثني عليك أمامها علّها تعجب بك. على أي حال إن الثناء يخجلك أكثر من الهجاء»!

بالطبع لم يكن عقلي هو معاقبي هذه المرة وإنما قلبي. أدرك حسن شرودي وعدم وجودي فخلّى لي ساحة تفكيري متعللًا أنني أعلم بمقالاتي منه وسأوفّق إن تركني أنتقي ما سأقدمه.

مرت عشر ساعات ونفسي رافضة أن تهبط من عالم الروح.. وليلى.. وبيكاسّو.. والشادوف.. والأفسنتين.. حتى اختطفني صوت أقدام تتشاجر مع درجات السلم صاعدة إلى الطابق العلوي. فنظرت إلىً الباب المفتوح فإذ بسمر تلهث من سرعة صعودها وتقول: ليلى..

ـ نعم رأيتها خرجت كعادتها قُبيل المغرب بدراجتها النارية.

ثم هالني عينا سمر اللامعتان بالدمع وصوتها صارخة:

ـ ليلى عملت حادث بالدراجة.

فارتفع الأدرينالين في دمي، وتسارعت نبضات قلبي، وتصلب جسدي واقفًا. فأكملتْ هي:

ـ ليلى ماتت.. (وخيم الحزن الصامت).

فجأة أحسست رصاصةً اخترقت صدري، ورعدًا ضرب أذني، وغصةً سكنت حلقي. وشعرت بالاختناق فالتقطت كوب ماء، وقبل أن يصل إلى فمي سقط أشلاءً.. فأدركت أنها النهاية.

ثلاثة ليالٍ وثلاثة أنهر.. ما يقرب من 72 ساعة أنقفتها في «عالم ليلى» الذي اندثر.. نهاية مأساوية متوقعة. «لمَ متوقعة؟ ولم مأساوية؟ ولم نهاية أصلًا»؟ ألا أستحق أن أتذوق طعم السعادة أو حتى أرتشف منها؟ ما الفرق بين حياتي وبين «سيناريو» أي فيلم أو مسلسل ساقط؟ بأي حق تتركني ليلى وترحل! بأي حق تعبث بي الأقدار!

لقد انتهت إقامتي في بيروت، وانتهت قصة مقالاتي، وانتهت «ليلى»..